عما قريب.. مصر نقطة تقاطع دولية للسكك الحديدية (١-٢)

د. نادر رياض

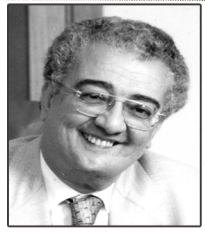

كم يكون اللقاء ممتعاً مع أصحاب العقول والخبرات الممتدة عبر الزمان والمكان..تحت هذا المفهوم كان لقائى بإحدى الشخصيات الألمانية التى تحب مصر والتى استوطنتها وهو الهر فولكهارد ويندفور والذى تخطى عمره الذى نتمناه مديداً الثمانين عاما والذى يتحدث ست لغات منها العربية بطلاقة حيث إنه حاصل على الثانوية العامة من مصر وهو يشغل منصب رئيس جمعية المراسلين الأجانب فى مصر وكذا رئيس جمعية أصدقاء السكك الحديدية المصرية.

كان لقاءا ممتعاً أعاد للذاكرة ما كان قد سقط منها بفعل تقدم السن أو حداثته، تمحور لقاؤنا حول مصر بقديمها وحديثها بدءاً من فن الكتابة الذى تم اختراعه فى مصر القديمة منذ نحو خمسة آلاف سنة على وجه التقريب.يؤكد علماء التاريخ أن أول دولة عرفتها الإنسانية نشأت فى مصر أيضاً تحت اسم كيما أوكيمت قبل بابل والصين وغيرها..قائمة الابتكارات التى فاجأ بها شعب وادى النيل عالم ما قبل التاريخ طويلة قد يرجع الفضل فى سرعة انتشارها إلى موقع مصر الجغرافى المميز على البرزخ (المضيق البرى) القصير المسافة الذى يفصل البحر الأحمر عن البحر الأبيض المتوسط فى منطقة قناة السويس الحالية والتى تربط قارة إفريقيا بقارة آسيا وأوروبا أيضاً بطريقة غير مباشرة وهو ما يفسر فى نفس الوقت نشوء علاقات مصر بالعالم الخارجى مبكر وتأثير الثقافة والتجارة المصرية على جيرانها فى المشرق وآسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وإثيوبيا والسودان وجبال الحبشة ومناطق جنوب الصحراء الكبرى وقبرص وجزيرة كريت وجزر بحر إيجا.

أما فى العصر الحديث فقد ظهر الدور الطليعى لمصر فى التعامل مع القاطرة البخارية والسكك الحديدية التى هيمنت على أنشطة البشر قرنيْن من الزمن حيث استخدمتها مصر قبل غيرها من البلدان بعشرات السنين مثل اليابان والصين، فسيرت أول قطار فى القارة الإفريقية والشرق الأوسط عام ١٨٥٤ من الإسكندرية إلى القاهرة مما تطلب عبور فرعى رشيد ودمياط لنهر النيل بالمعديات،وقد شاء القدر أن أول حادثة مع السكة الحديد وقعت فى مصر أيضاً عندما سقطت عربات أحد القطارات فى فرع النيل قرب كفر الزيات وكان من ضحايا هذه الحادثة المؤلمة أمير من أسرة محمد على الحاكمة، ولكن لم يتوقف تطور النقل على القضبان حيث تم إنشاء شبكة متكاملة من خطوط السكك الحديدية فى كل الاتجاهات فسرعان ما ظهرت فى مصر العربات الفاخرة للشركة الدولية لعربات النوم التى كانت فى انتظار الركاب القادمين من أوروبا فى مواقع البواخر مباشرة على رصيف رقم ٦ الشهير فى ميناء الإسكندرية.

ازدهر عصر السكة الحديد وغير الكثير من المفاهيم، فمن أشهر الانجازات للسكك الحديدية فى مصر تسيير قطار دولى غادر محطة القاهرة الرئيسية (محطة رمسيس) فى السابعة صباح كل يوم سبت من رصيف رقم واحد عابراً قناة السويس ومتجها إلى فلسطين وسوريا وتركيا ثم عبر البوسفور فى القسطنطينية، اسطنبول، ليصل إلى باريس ومحطة فيكتوريا لندن، فى حين انطلق قطار آخر من القاهرة إلى القدس فى مواعيد ثابتة، غير أن الرحلة بالقطار إلىً السودان تعذر بعض الشئ لأن شبكة السودان الحديدية كانت تعتمد على خط حديدى ضيق، وشبكة السودان التى أنشأها الانجليز امتدت شمالا حتى وادى حلفا فقط بالقرب من الحدود المصرية غير أن آخر محطة مصرية كانت فى أسوان. بعد الانتهاء من بناء السد العالى عام ١٩٦٠ مدت الهيئة القومية لسكك حديد مصر الخط الحديدى إلى السد نفسه وأنشأت فوق جسم السد محطة إفريقيا المطلة على بحيرة ناصر(بحيرة السد). حذت معظم الدول العربية حذو مصر وأنشأت شبكات سكك حديدية خاصة بها بخطوط عرض مختلفة ولم تهتم بربط شبكاتها بخطوط حديدية فى الدول الجارة إلا فى حالات نادرة سمحت بتسيير بعض القطارات الدولية الشهيرة مثل قطار الشرق السريع وقطارات سكة حديد بغداد وربطت عدداً محدوداً من بلدان الشرق الأوسط بعواصم أوروبية مختارة إلى جانب سكة حديد الحجاز التى كانت عبارة عن خط سكة حديد ضيق أنشأته الإمبراطورية الألمانية قبل الحرب العالمية الأولى لربط دمشق عاصمة ولاية سوريا العثمانية بالمدينة المنورة ولم يعد هذا الخط يستخدم إلا أجزاء منه فى الأردن وسوريا.

تغيرت السياسة والأولويات الاقتصادية فأصحاب القرار فى القاهرة يُحيون أفكاراً ومخططات قديمة بهدف عودة الروح لمشروعات ربط بلاد الفراعنة بدول الجوار بالسكة الحديد مع التركيز على السودان وليبيا وتونس والأردن وسوريا وفلسطين والعراق والخليج ولكن بدءاً بمشروع مهم للغاية تأخر كثيراً رغم فائدته الاقتصادية الكبيرة على المدى البعيد وهو ربط شبكتى مصر والسودان الحديدية..وللحديث بقية.

■ رئيس مجلس الأعمال المصرى الألمانى

عما قريب.. مصر نقطة تقاطع دولية للسكك الحديدية (٢-٢)

د. م نادر رياض

تناولنا بالمقال السابق الدور الطليعى لمصر فى التعامل مع القاطرة البخارية والسكك الحديدية التى هيمنت على أنشطة البشر قرنين من الزمن وكان لمصر السبق قبل غيرها من العديد من الدول، وانتهينا إلى ما أحيته القيادة السياسية فى مصر بعودة الروح لمشروعات ربط بلاد الفراعنة بدول الجوار بشبكة السكك الحديدية على وجه الخصوص السودان .

اتفق بالفعل الرئيس عبد الفتاح السيسى مع الرئيس السودانى عمر البشير على انجاز هذا المشروع فى المستقبل القريب،ولقد زار وفد مصرى متخصص الخرطوم وأديس أبابا للتباحث والتنسيق لتنفيذ مشروع شبكة سكك حديدية إفريقية ضخمة تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة فيكتوريا والمحيط الهندى.

يواجه هذا العمل الجبار تحديات فنية عديدة مثل اختلاف عرض الخط الحديدى القاهرة- أسوان - الخرطوم المقترح الجديد المخصص لقطارات فائقة السرعة والذى يتوافق مع عرض الخط المصرى الدولى العادى ١,٤٣٥متر، الخط الجديد لربط الخرطوم بواد مدنى مركز إقليم الجزيرة المعروف بزراعة أنواع متميزة من القطن وقصب السكر مصمم للعرض الدولى المذكور وسيمتد إلى حدود إريتريا التى ما زالت تعتمد العرض الايطالى القديم١,٩٥٠متر،أما الخط الحديدى الذى بدأ إنشاؤه منذ قليل لربط العاصمة أسمرة الجميلة فى منطقة جبلية خلابة بـ أديس أبابا فسيسير على قضبان ذات العرض الدولى أيضا.

بدأت الصين تنفيذ مشروعات ضخمة فى مجال السكة الحديد فى إثيوبيا ومد خطوط عرض دولى متعددة فى إطار شبكة إفريقية تشمل جيبوتى وكينيا وأوغندا وتنزانيا وربما الصومال لو استقرت الأمور وعاد إليها الهدوء والأمن، ستتحول كل الخطوط فى الدول المذكورة ذات العرض الضيق إلى خطوط العرض الدولى أو ستزود بقضيب ثالث للسماح بتسيير العربات والقاطرات ذات العرض الدولى.

تستعد مصر للوفاء بمسئوليتها المستقبلية كدولة مركزية فى الشبكة الحديدية الكبيرة الناشئة. ولقد أكد الدكتور إبراهيم الدميرى الأستاذ فى الجامعة الألمانية بالقاهرة ووزير النقل السابق فى ثلاث حكومات سابقة والخبير فى السكك الحديدية:«نحن نحتاج إلى جانب الشبكة الحديدية الحالية إلى خطوط جديدة لقطارات السرعة الفائقة تسير بـ ٣٥٠ كم فى الساعة بمحركات كهربائية بدلا من الوقود السائل، الأمر الذى يوفر لنا ثلث تكاليف الطاقة ويختصر وقت الرحلات إلى الثلث فى المسافات الطويلة. «سكة حديد السلام التى بدأ بناؤها فى عهد الرئيس الأسبق حسنى مبارك تعبر قناة السويس باتجاه العريش ورفح على حدود قطاع غزة وإسرائيل وتمتد إلى مناطق أخرى فى شبه جزيرة سيناء، مع العلم أن العمل جار حاليا فى شق ثلاثة أنفاق للسكك الحديدية تحت قناة السويس، مما يبشر بتنفيذ خطة متكاملة لتجديد وتحديث السكة الحديد فى مصر.

أما محاولات بناء جسر دولى للسكة الحديد والسيارات عند مدخل خليج العقبة فى مضيق تيران لربط المملكة العربية السعودية بجمهورية مصر العربية فمن المحتمل أنه ستنفق مصر والأردن على ربط البلدين عن طريق نفق للسكك الحديدية بين طابا والعقبة ميناء المملكة الأردنية الهاشمية.الخط الحديدى الضيق العرض الممتد من العقبة إلى العاصمة عمان ودمشق سيتم تحويله بسهولة إلى العرض الدولى للقضبان مع امتدادات مهمة إلى المملكة العربية السعودية والعراق والخليج.ان فوائد مثل هذه الخطوط العابرة للحدود كبيرة للغاية، مما دفع عضوا مرموقا من مجلس نواب العراق إلى المطالبة بصوت عال للتحرك:مستحيل إعادة بناء العراق وسوريا بعد خراب الحرب بدون شبكة سكك حديدية.

جهود الصين المتزايدة لدعم مشروعاتها الضخمة لربط مناطقها الصناعية بوسط وغرب أوروبا بواسطة خطوط حديدية تتوافق تماما مع خطط مصر والدول الإفريقية، حيث اتخذت بكين فعلا المبادرة وبدأت الاتصال بالحكومات العربية والأفريقية المعنية لأنها تهدف إلى إنشاء خط سكة حديد رئيسى على أعلى مستوى من التكنولوجيا لربط التجمعات الصناعية فى كل أنحاء الصين بالشرق الأوسط العربى وإفريقيا تجاريا وفنيا وكذا تنمية العلاقات مع دولة الـ ألف والأربعمائة مليون نسمة فى كل المجالات.مشروع «قضبان الحرير» كما يطلق عليه المتخصصون يتلخص فى إنشاء«مسار سكة حديد رئيسى حديث مماثل للخط الحديدى الكبير الذى يربط الصين بأوروبا وإن لم يكتمل بعد، على أن يمر هذا الخط جنوبى طريق الحرير التاريخى مارا بدول القوقاز والعراق وسوريا والأردن ومصر وسيمتد إلى ليبيا وتونس فى مرحلة لاحقة،يتمتع قطاع القاهرة –الخرطوم – أديس أبابا مع عدد من دول شرق ووسط إفريقيا باهتمام خاص من قبل أصحاب القرار فى الصين الذين يرغبون فى ضم ليبيا الغنية بمصادرها الطبيعية أيضا إلى دائرة نفوذها التجارى بأى وسيلة على افتراض أن مصر عامل مساعد مناسب فى هذا الموضوع، لأن وجود روابط سكك حديدية مباشرة بين مصر وليبيا يأتى بثمار قيمة للطرفين.

كان الزعيم الليبى معمر القذافى قد أُعْجب بعد عشرات السنين من التردد بالسكة الحديد مرة واحدة بفضل قطار فاخر من إنتاج شركة فيات أهداه له رئيس الوزراء الايطالى سيلفيو برلوسكونى آنذاك، استمتع القذافى بركوب هذا القطار مع أن طول الخط الحديدى فى طرابلس لم يزد على ١٦ كيلومترا وقال للهر فولكهارد ويندفور فى لقاء صحفى خاص «طول الخط لا يعنى شيئا الآن ولكنى سأركب القطار الهدية مستقبلا لزيارة القاهرة ودمشق، فالسكة الحديد مستقبلنا، ثم دعاه وبعض أعضاء جمعية المراسلين الأجانب بالقاهرة إلى ركوب قطاره لمسافة الـ ١٦ كيلومترا جنوبى طرابلس.

نحن لا نستبعد أن قطار برلوسكونى قد يتحرك فى يوم من الأيام وينقل ركابه إلى مدن مختلفة، أما القاهرة فهى تنتظر ما سيأتى به عصر السكة الحديد الجديد.

بقى أن نشير إلى أن النهوض بمرفق السكة الحديد وهو المرفق الأهم استراتيجيا والذى يمكن وصفه بأنه غنى فى أملاكه فقير فى إيراداته- بما يحقق الطموحات القومية المنعقدة عليه يؤهله من حيث الجدوى والعائد ليصبح المشروع القومى الأول من ناحية،ومن الناحية الأخرى يضع مصر عما قريب على نقطة تقاطع للسكك الحديدية بين الشرق والغرب.

■ رئيس مجلس الأعمال المصرى. الألمانى

جريدة الأهرام (صفحة ١٢) ٢٠١٨/١٢/٢٩